الطبيعة الإنسانية

كما يراها أبو العلاء المعري

لكامل كيلاني

قدرة الله

يرى أستاذنا الجليل أبو العلاء — فيما يراه — « أن قدرة الله ، سبحانه ، لا يعجزها شيء ، فاليبيس مستعيدٌ — بمشيئته — بعد اصفراره ، شبابهُ وخضرتهُ ، مستردٌ بعد مواته ، حياته ونضرته . والنيران الملتهبة متفجّر لهيبُها — بأمره — مياهاً سائلة ، والطبيعة الانسانية متحولة — بإذنه — من الغدر الى الوفاء . والأغنام متغيرةٌ طبائعها — بحكمه — مستبدلةٌ بضعفها قوة ، واستخذائها إقداماً وعزيمة ، متخيرة عن عرين السباع مسكناً تأوى اليه وتقرُّ فيه »

وهكذا يسترسل « أبو العلاء » في خياله البارع ، وأسلوبه الساخر الفياض بالدعابة القاسية ، والتهكم اللاذع ، والسخط المرير فيثبت لنا — بما ألفناه من طرائق إثباته المبدعة — أن الطبيعة الانسانية لا سبيل الى استقامتها واستوائها ، إلاّ إذا تغيرت طبائع الأشياء كلُّها ، وانقلبت حقائق الكون الثابتةُ ، فدبّت الحياة في الهشيم ، وتحولت النار ماء ، والأغنام المستضعفة سباعاً ضارية . واليكم النصُّ العلائيّ الذي فصّلناه :

« إذا أذن ربّنا اخضرّ الدّرينُ (اليبيس)
وتبجّستْ — بالماء — الإرينُ (النيران)
ووَفَى لقرينه القرينُ . وراحت الساجيّة (وهي ضربٌ من الغنم) ومأواها العرين .
وذلك — من القدرة — ليس ببديع . . »

***

لعلّ الكثيرين من قراء ابن الرومي يذكرون — بهذه المناسبة — أسلوبه البارع في سخريته من الوزير « أبي الصقر » حين ولي الديوان ، وعجب خصومه من تلك الطفرة وكيف تظاهر ابن الرومي باستنكار ما تخيله من دهشتهم فقرر لهم معاتباً ساخراً : « أن ظفره بذلكم المنصب ليس أعجب من ظفره بالانتساب الى أسرة « شيبان » العريقة الكريمة مع انه من

الاعجام ، ولكن الحظ السعيد يصنع الاعاجيب ، والقدرة الالهية تفعل ماتشاء من الغرائب ، ثم ختم دعابته القاسية بقوله :

إن للحظ كيمياء إذا ما مسّ كلباً أحاله إنسانا
يفعل الله مايشاء كما شا ء ومتى شاء كائناً ما كانا

* * *

إن خيال المعري — على انفساح جوانبه ، واتساع آفاقه ، ورحابة صوالجه — ليكاد ينكر على الطبيعة الانسانية ، أن تكون وفية ، ولا يتردد في إعلان ذلك في كل فرصة فيقول :

« من ادّعى أنه وفيٌّ فلينتسب في سوى الأنام ! »

ولا ينفك يصفها بأنها غادرة طافحة بالشر ، لا سبيل الى إصلاحها وتقويمها إلا اذا أذنت القدرة الالهية التي خلقتها وطبعتها على الشر ، وجبلتها على الأذيّة والعُدوان . كما خلقت معدنَ الحديد وجعلته صالحاً لصنع السيوف التي تسفك الدماء ، والحدائد تنعلُ بها أرجل الخيل التي تحمل المغيرين السفاحين . .

« والله — مذ خلق المعادن — عالم أن الحدادَ البيضَ منها تُجعل
سفك الدماء بها رجال أعصموا بالخيل ، تلجم بالحديد، وتنعل

* * *

الله الذي أبدع الكائنات ، وخلق جواهر الأشياء ، وخواصّ الموجودات ، هو وحده القادر على إصلاح هذا الينبوع المتعكر — في طبيعتنا الانسانية الفاسدة — وتطهير هذا المعين الفياض بألوان النفاق والطغيان ، فهو يقول :

« يستقيم العالم اذا أذن إله الخلوقين »

ويناجيه شاعرنا الفيلسوف أبو العلاء فيقول :

« لا يعجزك ممتنع في العقول »

ويقول :

« يقدر ربنا أن يجعل الانسان ينظر بقدمه ،
ويسمع الأصوات بيده ،
وتكون بنانه مجاري دمعه ،
ويجد الطعم بأذنه ،
ويشم الروائح بمنكبه ،
ويمشي الى الغرض على هامته . .

الى ... وذلك ... في ... ...

ويتمثل القدرة الالهية وقد ذللت الوحوش الضارية المفترسة فجعلتها أليفة وديعة تحملنا كما تحملنا الخيل والبغال والحمير وما اليها، ثم يتمثل النعامة التي لا يقرّ لها قرار، وقد حوّلتها القدرة حيوانا ذلولاً هادئاً، في مثل وداعة الجمل أو الحمار يستقر على جسمها الرّحل أو البرذعة ويوضع في فمها الزمام أو اللجام واليكم النص:

« لو شاء ربنا سخر لنا وحوش البر، فنقلتنا نقل النعم الذلل، وركبنا النعائم بأزمة وأقتاب »

أو يتمثل القدرة وقد غيرت مألوف ما تعودناه، فأهلكت الثريا أو أبادت نجوم السماء قاطبة، فيقول:

« يجوز بحكمه موت الثريا وأن تبقى السماء بلا نجوم »

* * *

حسبنا أن نجتزىء من ذلك الخضم الزاخر بهذه الأسطر القلائل التي قبسناها، لتدلّ على لمحة من آراء هذا الفيلسوف الشاعر في القدرة الالهية التي صاغت الطبع الانساني كله من طينة خائنة غادرة. غير وافية ولا شاكرة، فاستحق ان يقول فيه:

« لو بعث طائر يختطف، كل من فؤاده نطيف (فاسد) لسلب الارض أناسها

أو يقول:

« لو غربل الناس كيما يعدموا سقطاً لما تحصل شيء في الغرابيل »

الخيانة

ولعمري آراء طريفة في وصف الخيانة التي جبل عليها الطبع الانساني: وتقسيمها وتتبعها بالتحليل والتمحيص. فهو يقرر أن للانسان طريقين يسلكهما لتحقيق ما تأصل في نفسه من غريزة الخيانة: طريقاً خفية مستورة. وطريقاً ظاهرة مكشوفة

فالاولى خيانة يستأثر بها الضمير الانساني وحده، وليس يعلمها الا الله الخبير بما تنطوي عليه الجوانح وتفيض به القلوب من فنون الغدر وضروب النفاق. والثانية تشترك فيها أعضاء الجسم الانساني وحواسه، وتساهم في اقترافها بأوفى نصيب، فمنها:

« خيانة العين: اذا رأت ما لا يجوز لها أن تراه،

وخيانة الاذن: اذا أصغت الى هجر القول وأذاه،

وخيانة اللسان: اذا اخترع الحديث لو افتراه،

وخيانة الفم: اذا أكل الحرام أو اشتهاه،

وخيانة اليد : اذا اغتالت المال من حواه ، ولو بدده صاحبه وأفناه ،

وخيانة القدم : اذا مشت في طريق الآثمة وسلكت سبيل الغواة . وكل عضو أعان صاحبه على ارتكاب إثم ، او يسر له اقتراف خيانة ، فهو — كصاحبه — آثم خوان .. »

واليكم النص العلائي :

« الخيانة جنسان :

خيانة الضمير ، فتلك لا يشعر بها غير الله .

والخيانة الظاهرة ، تنقسم على أقسام :

خانت العين : بنظر واطلاع ،

والاذن : في إصغاء واستماع ،

واللسان : في قول واختراع ،

والفم : بمأكل مضاع ،

واليد : في اكتساب مال المسباع (المضيع لماله)

والقدم : إذا نقلها للاثم ساع

وكل عضو : أعانك على الخيانة فقد خان »

خيانة الضمير

وخيانة الضمير — فيما يرى شاعرنا — أقبح الخيانات ، ومتى فسد الضمير ، وخبث القلب وساءت النية ، فلن يصدر عن صاحبها الا كل قبيح فاسد :

« اذا اعتلت الأفعال جاءت عليلة — كحالاتها — اسائوها وللمصادر »

وكل ما يبديه العابد من ضروب العبادات وفنون الطاعات ، عبث لا غناء فيه ، متى فسدت الضمائر ، وساءت النيات . فلا فائدة من الصوم ، اذا لم تخلص النفس ويطهر القلب ، وتصدق العقيدة . ولن يصح الصوم ، كما يقول : « إلا لمن جاهد وصام عن لحوم الناس »

« وصوم النية » — فيما يقرر ويثبت — « أفضل الصيام ، لأن الجوارح تتبع القلب ، وربما صامت اليد ، وأفطر اللسان ... الخ »

وماذا تجدي حلاوة اللسان إذا فسد القلب ، وخبث الجنان ! ولن ينفع أحداً معسول الكلام ، إذا أضمر الصاحب لصاحبه الغدر والخديعة

وفي هذا يقول متألماً : « أما الفم فسكّر المذاق ، وأما نية الخلد فقطران »

ومتى كان الطبع الانساني الذي يرمز اليه بالقلب مرة ، وبالضمير ثانية ، وبالغريزة ثالثة

وبالمهجة أو النفس ، أو الفؤاد الخ ، مادام ذلك الطبع — أو ما شئت تسميته من أسماء — هو المحرك للجسم وأعضائه ؛ فعليه وحده تقع تبعات كل ما يصدر عنها من جرائم وآثام . فهو يقول :

« وليس للسان ذنب إنما الذنب لمحرك اللسان ، كفارس طعن برمح فقتل غير مستحق القتل ؛ فالجاني الفارس ، والرمح غني عن الاعتذار . وإذا سعت القدم إلى قبيح ، فالجريمة لناقلها ، مثل رجل ركب فرساً ، فأخاف سبيلاً ، فاستوجب العقوبة الرجل دون الجواد ، وإذا خانت اليد ، فالباسط لها الحَسَب المخزون ، كالمغترف من إناء جاره بإناء ، بما علم إناؤه عما كان . وإذا نظرت العين ، فتلك المصباح استعان بها السارق على اجتلاء بزّ وجهاز ... الخ »

أو يقول: « لو خاف للجفن لسهر ، ولكن الفؤاد أثر »

فالطبيعة الانسانية — كما يراها شاعرنا — تستعين بكل ما تملكه من عتاد وقوة جثمانية لتبلغ ما تتوخاه من آراب خائنة فجرة ، ونقائص مستورة وظاهرة

جريرة الجسم

على أنه لا يعفي الجسم أحياناً من اللوم والتعنيف ، فيقول

« فكيف لا تخبث النفس التي جعلت   من جسمها في وعاء كله دنس »

أو يقول: « فإن لأجساد الأنام غرائزاً   إذا حركت للشر صاحبها لجّا »

والجسم بعد كل شيء هو — فيما يراه — الأداة التي يحقق بها الطبع الانساني ما يتوخاه ، من شروره وأذاه

ثبات الطبع

وجمهور قوله وفلسفته تؤيد رأيه في أن الطبع راسخ رسوخ الجبال ، وان كل محاولة لتحويله ، إنما هي محاولة عقيمة لا تجدي ؛ فهو تارة يشبهه بالهضاب فيقول :

« والطبع يثبت كالهضاب ، ومن يرم   نقلاً له ، يعجزه ويعيَ بنقله »

ثم ينعته بالفساد ، ويعلن يأسه من إصلاحه فيقول :

« وجبلة الناس الفساد فضلّ من   يسمو بحكمته إلى تهذيبها »

أو يقول :

« فلا تأمل من الدنيا صلاحاً   فذاك هو الذي لا يستطاع »

الطبع واللون

وتارة يمثله باللون ، ويهزل من يحاول تغيير طبعه بمن يحاول تغيير لونه ، ويسأل نفسه

سؤال اليائس : أيستطيع الغراب أن يبدل سواد لونه ، مهما بذل من جهد ، ويقول :

« وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر
فقل للغراب الجون إن كان سامعاً : أأنت على تغيير لونك قادر؟ »

أو يقول :

« أتصح توبة مدرك من كونه أو أسود من لونه فيتوبا »

الطبع والهوى

وربما دار بأخلادنا أن نسأله لعله يفضي الينا بمصدر هذه النزعات الشريرة ، والأهواء الجامحة ، ومن أي معين تنبع ، ومن اي بذور تنبت ، لعلنا نقتلع تلك البذور الفاسدة ، ونستأصل دواعيها . فاذ وجهنا اليه هذه الاسئلة ، أجابنا أروع اجابة فنية . فثل لنا الطبع الانساني بالماء ، ومثل لنا ما ينشأ فيه من نوازع واهواء ، بالفقاقيع التي تنشأ على سطحه ، فقال :

« والقلب كالماء ، والأهواء طافية عليه ، مثل حباب الماء في الماء »

طبائع الاجيال

فاذا سألنا : « خبرنا يا شيخ المعرة : متى فسدت النيات ، وارتكست الطبائع ؟ أجابنا متنبئاً عابساً :

« مضى الزمان ونفس المرء مولعة بالشر ، من قبل هابيل وقابيل »

أتراه يعني ان الشر متأصل في النفس منذ آدم . والد « هابيل » و « قابيل » . من يدري؟ فلعله يرمي الى أبعد من هذا المعنى وأعمق . ولعله يعني ان الشر أقدم من صاحبنا فليس آدم — في مذهب العقل عنده — أول انسان . فلعل أوادم أخر قد جاؤوا قبله في غابر الأحقاب ، فهو يقول :

« وما آدم — في مذهب العقل — واحد ولكنه — عند القياس — أوادم »

أليس هذا — في مذهب العقل — ممكناً ؟ بلى ، وهو ميسور معقول :

« جائز أن يكون آدم هذا قبله آدمٌ على إثر آدم »

فاذا سألناه متعجبين :

« ألم يصلح في أي زمن ؟ » أجابنا : « كلاّ لم يصلح الطبع في أي عصر من العصور ، ولم يكرم في أي جيل من الأجيال » قال :

« فالطبع في كل جيل طبع ملائمةٍ وليس في الطبع مجبول على الكرم »

ثم قال لنا : « هذه ارادة الله وقضاؤه ، فلنذعن لهذه الارادة ولا نعترض ، فانها :

جبلة الفساد واضحة إن لامها المرء لام جابلها »